الفصل الثاني
إنهـا غـزة

قبيل الفجر بقليلٍ، عادت "جهاد" إلى فراشها مرةً أخرى، بعدما أمر جنود الاحتلال بمواراة جثة الشهيد التراب، قبل أن تشرق عليه شمس الغد، خوفاً من الغضب الذي سيغلي في عروق الجميع أثناء جنازته إن تُركت للصباح.. وحتى لا تنقلب الجنازة إلى ثورة، فتندلع المجازر من جديد.

حاولت "جهاد" استجلاب النوم إلى جفنيها بصعوبة، لكنها لم تستطع..

الحياة في غزة عجيبة.. يمكنك أن تنام على جنازة، وأن تستيقظ على زفافٍ.. يمكنك أن تسمع زغرودة، فلا تعلم هل انطلقت من أم عروس أم من والدة شهيد.. يمكنك أن تمشي في زفاف، فيجمعك الطريق بعزاء، فلا يسعك إلا أن تبارك للعروسين.. فالأول شهيد والثاني عريس.. إنها غزة تجمع كل شيءٍ بضده، الموت والحياة.. اليأس والإصرار.. الحب والحرب!

ومع ذلك لابد للحياة أن تستمر بالشكل الطبيعي لها.. لابد للشاب أن يتزوج، للطالب أن يتخرج، وللنسل أن يستمر.

حاولت "جهاد" أن تتدثر بالغطاء جيداً، لكن قفزت إلى ذهنها فجأة صورة نجمة داوود التي كانت موضوعة وبعناية على مقدمة السيارات اليهودية التي شهدت جنازة الطبيب.. ألم تكن النجمة هذه هي ذات النجمة التي كانت تزين صدر والدتها

قديماً؟.. ألم تذهب مع أمها وأخيها مراراً إلى المعبد، عندما كانت طفلة؛ لأداء الصلاة بالمعبد اليهودي بالإسكندرية؟.. بل إن أمها جاءت بها إلى هنا على متن سفينة يهودية.

ترى هل هي بالفعل من نسلِ عائلة يهودية تدين بتلك الديانة، وتنتمي للدولة ذاتها التي تغتصب أراضي غيرها؟.. قطعاً، هي كذلك ودون ذرة تفكيرٍ واحدةٍ.. لكن إن كانوا بالفعل يهوداً، فلماذا في تلك الليلة الموعودة، بعدما أنقذهما العم محمود، وبعدما استردت أمها جزءاً من عافيتها في آخر الليل، ألم توقظها وهي تقول في همسٍ يشبه البكاء:

-سأخرج الآن، وسأحاول قدر استطاعتي أن أعود، وإن لم أستطع، فاعلمي يا حبيبتي جيداً أنكِ مسلمة، مثلكِ مثل أهل هذا البيت تماماً.

نظرتُ لها الصغيرة في عدم فهمٍ، لكنها أردفت:

-أعلم أن عقلكِ الصغير لا يستوعب مثل كل هذا، لكن لا وقت لدي للشرح.. لكن إن لم يقدر الله لي العودة، فاعلمي جيداً أنكِ تدينين بالإسلام.. وأن نبيكِ هو النبي محمد " صلى الله عليه وسلم " وأن اسمكِ الحقيقي " جهاد " وليس " جيسي " كما كنا نطلق عليكِ في مصر.

انسيْ أمر المعبد اليهودي تماماً، ولا تذكري زيارتكِ له أمام أحدٍ، ومن الآن فصاعداً، فلا اسم لكِ سوى " جهاد "، ذلك الاسم الذي سماكِ به أبوكِ، وارتضيته أنا اسماً لكِ.

قبّلتني أمي قبلةً حانيةً، تركت آثار دموعها على وجنتي، ومنذ تلك اللحظة، وأنا لا أعلم عن أمي شيئاً حتى الآن، خرجت ولم تعد، ولا أعلم هل هي ميتة أم ما زلت

حية ترزق؟.. ولا أعلمُ لماذا جاءت بنا أنا وأخي يوسف الذي لم تقدر له الحياة إلى هنا؟.. ولا لماذا رحلت من هنا؟.. لا أعلم هل أنا يهودية الديانة كما تربيتُ وتعلمتُ، أم مسلمة الاعتقاد كما نشأتُ وترعرعتُ؟.. لكنني وعلى كل حال شببتُ على الإسلام واطمأننتُ له وركنتُ إليه.

****

كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة والنصف، عندما توقفت سيارةٌ سوداءُ كبيرة أمام مبنى الموساد بتل أبيب.. هبط منها رجل رشيق القد، ممشوق القوام، وسيم الملامح، ذو عينين زرقاوين، وشعر بنيٌ داكنٌ.. وبملامح جامدة، ودون أن يبتسم، أبرز بطاقته للجندي المكلف بحراسة المبنى، ثم ألصق إبهامه بأحد الأجهزة التي قارنت بصمة إصبعه بالبصمات المسجلة لديها.. حينها، انفتح الباب الخارجي للحديقة، فاجتازها الوسيم بخطواتٍ واسعةٍ، ثم تقدم إلى المبنى في سرعةٍ، وقبل أن يصعد درجات السلم المؤدي إلى مكتبه، هتف به أحد موظفي الاستقبال:

-سيادة الرئيس يريدك في مكتبه يا سيدي.

تحول الوسيم إلى السلم الآخر المؤدي إلى مكتب الرئيس.. ولم تمض بضع دقائق، حتى كان في مكتبه.. ابتسم الرئيس ابتسامة باهتة، ثم سأل مستفسراً:

-ألا زالت والدتك تشتكي الصداع الذي يكاد يعصف برأسها؟

أومأ بوجهه أن نعم، ودون أن ينطق.

-لطالما تحملت والدتك من العناء الشيء الكبير، حتى يكبر هذا الوطن أمام عينيها، وكأنه طفلٌ لها.. لعل ما تصارعه الآن نتيجة ضغط نفسي تراكم بصدرها دون أن

تشعرهي، ودون أن تمنح روحها الفرصة لتتجاوزه.. سنحاول نحن نقلها لمصحةٍ نفسيةٍ خاصةٍ بعملاء الموساد الخاصين.. الخاصين جداً.. لا تقلق، سنتولى نحن الأمر.

تحرك الرئيس من خلف مكتبه، ثم عقد ساعديه أمام صدره، موجهاً الكلام للجالس أمامه قائلاً:

-الجميع يلحظ مجهودك الخرافي الذي تبذله من أجل بناء الوطن على هذه الأرض.. وهذا بدوره، كان السبب الرئيس في لفت جميع الأنظار لمن هو " إيلان إيرائيل ".

لذلك، لقد قررتُ إبعادك لمدة من الوقت عن إسرائيل، حتى تهدأ نظرات جمعيات حقوق الإنسان ومجالس الأمن نحوك.

مط "إيلان" شفتيه قائلاً:

-ولكنني لا أستطيع أن أجلس في منزلي كما النساء يا سيدي.. أنا أتنفس العمل من أجل هذا الوطن.

-ومَن قال إنك ستجلس كما النساء بلا عمل؟.. لقد وقع الاختيارعليك لتنفيذ مهمةٍ أهم.. ولعلمي أنك من أكفأ ضباط الموساد، فلم أجد أفضل منك يقوم بها.

-وما هي؟

-مهمة سرية في قلب القاهرة.

-القاهرة!!!

-أجل القاهرة.. لقد أبلغتنا مصادرنا الخاصة، أنهم يعدون العدة لملاقاتنا مرة أخرى من أجل القضاء علينا، وإبادتنا تماماً من المنطقة.

لقد انتهينا من إعداد الأوراق اللازمة.. وهذا جواز سفرٍ أمريكي يحمل اسم " حازم عبدالسلام "، وهذه هي الشخصية التي ستنتحلها طوال إقامتك في القاهرة.

أما عن مهمتك الرسمية، فهي المحاولة، وبأي طريقةٍ التعرف على الناشطة الحقوقية "حياة حمدي"، رئيسة هيئة الأخصائيين الاجتماعيين لجنود الجيش المصري.. حياة هذه فتاة نشيطة للغاية، ويمكنها أن تضحي بروحها من أجل مصر، أو من أجل أية دولةٍ عربيةٍ أخرى، لذلك فهي تبذل قصارى جهدها من أجل أمن وسلام دولتها.. لذا فقد قررت النزول بنفسها بين صفوف الجيش المصري، وهي المسؤولة عن حل مشاكلهم الشخصية التي قد تتعلق بهم أو بذويهم الموجودين بالمدن والقرى.

وكما أنها مسؤولة أيضاً عن رفع الروح المعنوية للجنود، وإعادة النشاط النفسي للمحبط واليائس منهم.. وعلى صغر سنها، نجحت في أداء المهام المكلفة بها على أكمل وجه.

في طفولتها، لطالما قامت بتمثيل دور الفتاة التي أوقعت ضباط الإنجليز في حبها على مسرح مدرستها.. ولطالما قادت الثورات، وهتفت في الشوارع، واعتصمت في الميادين، من أجل رفع الروح الوطنية، وبث حب الوطن في قلوب الجميع.. مما أدى إلى التفات أنظار جهاز المخابرات المصري نحوها، فما كان منهم إلا أن قاموا بتعيينها في هذا المنصب الخطير والحساس جداً؛ لإضفاء بعضٍ من الطاقة الإيجابية التي تملكها إلى الجنود.. فما كان منها إلا أن أدت دورها على أكمل وجه.. وحتى الآن، الكل يحترمها، ويقدرها، ويعتبرها لا تقل أهمية عن قائد القوات المسلحة نفسه.

بالإضافة إلى ذلك، لعبت "حياة" دورمستشار رئيس الجمهورية في العديد من القرارات التي أصدرتها الرئاسة المصرية في الفترة الأخيرة.

هذا ملف كامل يحمل كل المعلومات التي يمكن أن تحتاجها عن هذه الناشطة، بداية من حياتها بالإسكندرية، وحتى وصولها إلى مستشار رئيس الجمهورية.

مدة إقامتك في القاهرة لن تتجاوز الثلاثة أشهر، في هذه المدة القياسية، نريد أن نعرف كل حركة من حركات الجيش المصري، وكل سكنةٍ من سكناته.. عدد جنوده، ودول تصنيع مدرعاته.. كم دبابة يملك؟ ومَن هم أقطاب القوات المسلحة المصرية؟ حياتهم وأولادهم.. عدد ثكناتهم العسكرية، والكمائن التي تحمي حدودهم.

أما الجزء الأهم، فنريدك أن تتجول داخل عقولهم، وأن تسبر أغوارهم، وأن تغوص في أعماقهم؛ لكي تعلم في ماذا يفكرون؟ وما هي خطواتهم القادمة حتى نباغتهم نحن بها؟.. نريدك أن تبلغنا تحركاتهم وقراراتهم، ونقاط ضعفهم، حتى نوجه نحن ضربتنا من خلالها.. ونقاط قوتهم، حتى نركز نحن جهدنا عليها.

ابتسم الرئيس ابتسامة مفتعلة، ثم مد يديه مصافحاً، وهو يردف قائلاً:

-ستنطلق بك الطائرة غداً من تل أبيب إلى أمريكا في الثامنة صباحا، حتى لا يشك بك أحد، ومن هناك يمكنك أن تستقل إحدى الطائرات إلى مصر كأي مواطن أمريكي عادي.. ثم أردف الرئيس قائلاً:

-هل أدركت ما تحتمّ عليك فعله؟

شد إيلان قامته واقفاً، وهو يقول:

- أنا رهن إشارة الموساد يا سيدي.. كل المعلومات التي طلبتَ ستكون عندك في أقل من الثلاثة أشهر.

- يبدو أنك تتمتع بروح معنوية عالية، على الرغم من كل تهديداتهم لنا بإبادتنا من المنطقة.

- إنني إيلان يا سيدي، أحد ضباط أهم جهاز مخابرات في العالم.

- يبدو أنك مسرفٌ في التفاؤل، وهذا ما جعل اختياري يقع عليك أنت بالذات، دون أي ضابطٍ آخر..

انحنى إيلان مؤدياً التحية.

****

في اليوم التالي، استيقظت "جهاد" مبكرةً حتى يتسنى لها مقابلة "طارق" قبل الذهاب إلى عمله؛ ليحضر لها آلة التصوير الخاصة بها.. قررت انتظاره أمام باب حديقة بيتهم، حتى يخرج.. فهي لن تدخل هذا البيت بعد الآن إلا لضرورة، أوعندما تحتمّ عليها الظروف.. هذا البيت الذي نشأت وترعرعت بين جدرانه، ولم تعرف لنفسها أهلاً إلا ساكنيه.. رغم ما مرت به من محن داخله، إلا أنهم في الأخير قد صبوا عليها الحب صباً، وعاملوها كما لو أنها واحدة منهم.

وعادت بذاكرتها للوراء عندما جاءت إلى هذا البيت، حينها كانت طفلة في السادسة من عمرها.. غير قادرة على احتمال كل هذه الأهوال التي تشيب لها رؤوس الولدان.. فقدٌ يتلوه فقدٌ، ومحنة تتبعها محنة.. طفلة يتيمة، فقدت أخاها الوحيد رفيق

سنواتها الست، ووالدتها التي لم تتوقع يوماً أن تغادرها، لكنها وعلى العكس تماماً خيبت كل آمال ابنتها الطفولية، عندما ابتعدت هكذا وبدون سبب عنها تاركةً إياها في بيت لا يتقبل وجودها فهي ليست منهم وهم ليسوا منها.

قضيتُ أيامي الأولى في بيت العم محمود كأنني في صراعٍ، لا أحد منهم يتحدث معي أو يجالسني، وأذكر تلك المرة التي حاولت فيها زهرة ابنة العم محمود اللعب معي.. عنفتها أمها أمامي قائلةً:

-ألم آمركِ بعدم اللعب معها، أو الحديث إليها حتى نعلم مَن أبوها ومَن أمها؟.. خرجت الفتاة من الغرفة باكيةً.. أغلقت الأم باب الغرفة التي أقطنُ بها في عنفٍ، وتوالت إلى سمعي تهديداتها لصغيرتها دون رفقٍ منها أو هوادة.

رغم ذلك، كانت الأم تهتم بإطعامي جيداً لكن بشكلٍ غير آدمي.. كانت تطرق باب غرفتي، ثم تدخل دون أن تتلقى جواباً مني بالدخول.. فتضع أطباقاً من الطعام دون أن تنبس ببنت شفة.. كنتُ كقطٍ جائع، وجدوه مبتلاً يهطل عليه المطر في أحد الشوارع الجانبية.. رفقوا بحاله، وقرروا الاهتمام به لكن دون أن يمنحوه ذرة من الحب أو العطف.

لم تغفر طفولتي لي ما فعلته أمي.. ظنّ الجميع أن أمي لم تكن امرأة شريفة.. لذلك قررت الانتحار بعدما لم يتقبل المجتمع وجودها هي وابنتها داخله.. تباً لهم جميعاً، مالي أنا بكل هذا.. تباً لأبي الذي توفي مبكراً، وتباً لأخي الذي أفتقده، وتباً لأمي التي رحلت.. تباً للجميع!

لابد أن أرحل أنا الأخرى.. مكاني ليس هنا، لا مكان لي في هذا العالم بأكمله.. مرت الأيام تليها الشهور، وأنا على حالتي تلك، لا أمي تعود، ولا العم محمود وأولاده يتعاملون معي، الكل يتجاهلني، ويتجاهل وجعي الذي يكاد يفتك بقلبي الطفولي.

وفي ذلك اليوم، وبينما كنتُ ذاهبة إلى دورة المياة، إذا بي أجد نافذة المنزل التي تطل على الحديقة الأمامية للبيت مفتوحة.. صعدتُ الأريكة؛ لأرى ما سبب هذه الضحكات التي تتعالى من خلف النافذة؟!.. إنهم طارق وزهرة معهم بعض أبناء الحي يلعبون ويركضون.. يتسلقون أشجار الحديقة بخفة؛ ليختبئوا بين أغصانها؛ ليأتي طارق ويبحث عنهم، ويرديهم قتلى جميعاً.

أحببتُ اللعبة، تركتُ مكاني خلف النافذة، وذهبتُ إليهم طالبة منهم الانضمام للعب.. نظر طارق إليّ بغلٍ ثم قال:

-لن تلعبي معنا، اذهبي لغرفتكِ، لكن زهرة أمسكت بيدي، طالبة منه أن يسمح لي باللعب معهم، لكن طارق قال مهدداً:

-لن يلعب معها أحد، إنها لقيطة لا أب لها.

التفتت نظراتهم نحوي.. كانت كلمة طارق الأخيرة بمثابة القنبلة التي انفجرت في وجوههم، نظروا إليّ شذراً بنظرات رجالٍ راشدين، لا كأطفال لم يتجاوز عمر أي منهم العاشرة.. نظراتٍ باردة تقع على جسدي كالكرابيج.. لملمتُ خيبتي، وعدت لغرفتي الصغيرة في انتظار عودة العم محمود الذي سأشكو له ما فعله طارق بي؛ لينتقم لي منه.

ولكم كانت خيبتي، حين عاد العم محمود، ولم يمنح الموضوع كثير اهتمامٍ بل قال متوعداً:

-لا تقلقي سأوؤدبه لاحقاً، ودخل إلى غرفته.

وعدتُ إلى غرفتي.. مسحتُ دموعي بكفي الصغيرة.. وضعتُ وشاحاً على شعري مثلما تفعل خالتي أم طارق، عندما تريد التحدث إلى رجل، وعقدته حول عنقي بأصابع لم تدر لماذا أفعل هذا؟ لكن حينها رغم طفولتي كنت أستجلب شفقته.. خرجتُ إليه، وجلست قبالته تسبق دموعي شفتاي قلتُ له:

-أودُ أن أرحل من هنا.

نظرت زوجته إليّ بعطف لا يخلوا من الاندهاش قائلةً:

-وأين ستذهبين؟

قلتُ ببراءة:

-إلى بيتنا في الإسكندرية.

-الإسكندرية!!!.. قال العم محمود.

-نعم.. تلك المدينة التي كنا نقطنُ بها قبل أن تأتي أمي بنا إلى هنا.

-ولماذا أتت بكم إلى هنا ؟

حينها، حكيت للعم "محمود" كل ما جرى لنا، بعدما حدثٍّ عن ذكر المعبد، وأصلنا اليهودي كما أوصتني أمي.. ومنذ تلك اللحظة، والعم "محمود" يعاملني كابنته، بعدما شعر بالألفة تجاهي؛ لكوني مصرية الجنسية.. تلك البلد، التي سافر لها

أخوه الوحيد، طالباً العلم في أزقة الأزهر منذ عشر سنين.. لكن بعد عامين من سفره، انقطعت أخباره، وتوقفت رسائله، ولم يعد يعرف العم محمود هل أخوه ما زال على قيد الحياة أم أنه انتقل إلى رحمة ربه؟.

قطع حبل ذكرياتها صوت طارق وهو يسأل في تعجب:

-"جهاد".. لماذا تقفين هكذا؟.. أمي في الداخل سألت عنكِ.

-سأمر عليها عند عودتي من العمل.

-عجيبٌ أمركِ.. أنتِ تتعمدين المرورعليها كل صباح قبل ذهابكِ للمحطة!

تجاهلتُ تعليقه عمداً ثم هتفتُ:

-وددتُ أن أسأل عن آلة التصوير.. لابد أن يُذاع التقرير الخاص بالدكتور" أحمد ناصف " اليوم.

-وما المشكلة إن تأخرتِ في إذاعته ليومٍ أو اثنين أو حتى أسبوع.. خروجكِ بآلة التصوير من منزلنا الآن لن يكون محموداً .. اليهود يمشطون الحي كله؛ لردع من تسول له نفسه الثورة على ما حدث.. اتركيها عندي ليومٍ أو اثنين ريثما تهدأ الأمور، وعند ذلك يمكنكِ أخذها في أي وقتٍ.. تنتظرين سيارة المحطة أليس كذلك؟

-لا.. اليهود يملؤن المنطقة.. سأحاول الذهاب بالمواصلات العامة، أو حتى سيراً على الأقدام.

-يمكنني أن أوصلكِ في طريقي.

-شكراً لك.. ودون أن تسمع رده سارت في طريقها.

اتجه طارق إلى سيارته، وهو يغمغم محدثاً نفسه:

-ماذا بها.. لماذا هي شاردة هكذا، وعلى غير العادة.. هي التي تشتعل حيويةً ونشاطاً في أحلك الأوقات، ترى ما الذي حل بها ؟!

مط شفتيه متعجباً.. أدار السيارة، ثم انطلق بها في طريقه إلى العمل، ومعها انطلقت ذكرياته، وكأنها تتراءى أمام عينيه.

أذكر تلك الليلة، التي نظرت فيها أمي إلى الطفلة نظرةً لم نعهدها منها.. أخيراً اعترفت أمي أن تلك الطفلة واحدة منا، يجب أن نعاملها مثلنا تماماً.. في تلك الليلة، احتضنتها أمي، وربتت على كتفها، ووصفتها بالمسكينة، وقبل أن نذهب إلى النوم، وجهت أمي كلماتها إلى أختي زهرة قائلة:

-زهرة، من الآن عليكِ المبيت بغرفة جهاد.. قفزت زهرة من الفرحة قبل أن تقول لأمي في تساؤل:

-ومَن سيبيتُ مع "طارق"؟

قال والدي:

-"طارق" رجل، وسيبيتُ في الحجرة بمفرده منذ الآن.

وقبل أن يكمل أبي كلمته كانت زهرة وجهاد في حجرتيهما.. اشتعل قلبي غيظاً، تلك الطفلة الخبيثة، من الواضح أنها استولت على قلوب الجميع تلك الليلة.. وقبل أن يعبث النعاس بجفنيْ، حاولتُ النظر إليها نظرة مختلفة علني أرفق بها مثل الجميع.. لم أستطع، فقط فتاة شقراء، ناصعة البياض، ومثل هؤلاء النوع من الفتيات يثير ريبتي، ولا أدري لمَ؟.. وعيناها الزرقاوان، تحملان من الخبث أكثر مما تحملان من الرقة..

ملامحها المثيرة لانتباه الجميع، كانت مثيرة لاشمئزازي أنا، ولم أستطع أن أمنحها أي إحساسٍ سوى سارقة أختي زهرة مني، ومن قبلها سارقة قلبيْ أمي وأبي.

بعد ذلك كانت أمي ترعاها كطفلتها، بل وتهتم بها أكثرمنا، حينها كان شعوري بالغيرة يشتد ويشتد، ولم أكن أنظر إليها إلا بنظراتٍ حانقةٍ، وعيونٍ غاضبة، وقلبٍ ملؤه البغض والكره.. كانت في نظري غريبة عنا، ولا أدري لمَ ساقها القدر إلينا؟

توقف عن الاسترسال في ذكرياته في اللحظة نفسها التي ضغطت فيها قدمه على دواسة الفرامل بسيارته.. فهو ليس لديه وقتٌ للتفكير في الذي حل بجهاد، وسبب شرودها المفاجئ.. اليوم يقع على عاتقه إنجاز الكثير من العمل قبل العودة إلى منزله.

نزل من سيارته على عجلٍ .. اتجه مباشرة إلى مكتبه في خطواتٍ سريعةٍ، ولكنه قبل أن يصل إليه هتفت به إحدى العاملات بالشركة قائلةً:

-سيد طارق، إحداهن تركت لك هذا الخطاب في الصباح الباكر.. أخبرتني أنها تطلب منك أن توصله يداً بيد إلى جهاد، وقالت لي:

-أبلغيه أنني ذات الفتاة التي زراته بخصوص جهاد خمس مراتٍ.

تناول الخطاب من يدها وهو يغمغم:

-الفتاة اليهودية، لماذا هي حريصة هكذا على لقائكِ يا جهاد.. لابد أن في الأمر خطباً ما.. حدثته نفسه مراراً بقراءة الخطاب، لكنه في كل مرة كان يتراجع قبل أن يفضه بلحظاتٍ.. وفي اللحظة الأخيرة، استجاب لفضوله وقرأ ما بالخطاب، لكنها كانت المفاجأة.. مفاجأة من نوعٍ آخر.

****